مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 15 / العـدد 02 / سبتمبر2021 / ص ص 476 - 484
Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

التوجيه الجمالي و أبعاده الحضارية عند مالك بن نبي

Aesthetic guidance and its Civilizational dimensions according To Malek ben Nabi

اليامين كنان
1 مخبر المجتمع الجزائري المعاصر - جامعة سطيف 2 (الجزائر) ، aminekenane201806@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/06/01 تاريخ القبول: 2021/09/26 تاريخ النشر: 2021/09/30

ملخص:
تهدف الدراسة إلى تبيان مفهوم الجميل عند مالك بن نبي الذي يتجاوز حدود الانفعالات الحسية والإدراكات الجمالية إلى أبعاد أخلاقية وتربوية، هذا ما تلخصه فكرة التوجيه الجمالي التي تعتبر بمثابة تربية اجتماعية

يقر بن نبي بانحراف مفهوم الجميل نتيجة المصادرات الثقافية التي عرفها الفرد المسلم، حيث يتأكد له في مستويات الإثبات أن فكرة التوجيه تعمل على إعادة استرجاع كل المقومات الثقافية والأخلاقية والجمالية، ومنه يهدف مبدأ التوجيه الجمالي إلى بناء غاية محددة من الادراكات الجمالية وهي الغاية الأخلاقية التي ترتبط أساسا بالفكرة الدينية، الأمر الذي يجعل من الفرد المسلم فردا سائرا في طور الحضارة.

كلمات مفتاحية: التوجيه الجمالي، الثقافة، الفكرة الدينية، الحضارة، الفن.

ABSTRACT:
The study aims to clarify the beautiful concept according to Malek Ben Nabi that exceeds the limits of sensory emotions and aesthetic perceptions to moral and educational dimensions, this is what summarized by the idea of aesthetic guidance which is considered as social education.

Ben Nabi acknowledges the deviation of the beautiful concept as a result of cultural confiscations known by the Muslim individual, as it is assured at the levels of proof that the idea of guidance is recuperation all the cultural, ethical and aesthetic components. so, the principle of aesthetic guidance aims to build a specific purpose of the aesthetic perceptions, which is an ethical goal that is mainly related to the religious idea, the later makes the Muslim individual moving to the stage of civilization.

Keywords: Aesthetic guidance, Culture, Religious idea, Civilization, Art.

- المؤلف المرسل: اليامين كنان

ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

1- مقدمة:

عمل المفكر الجزائري مالك بن نبي1905-1973 على جملة من القضايا والاشكالات التي شكلت هواجس عميقة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، ومن أهمها مشكلة النهضة، وما تحمله من اختلالات وأمراض مست الفرد والمجتمع، وعلى تعدد المستويات الثقافية والقيمية كمشكلة الأفكار والثقافة ومشكلات الاخلاق والجمال وغيرها... حيث لخَّص تلك الجهود بمدوَّنات اصطلح عليها سلسلة مشكلات الحضارة، التي تقف على مكامن تلك الاختلالات التي تَلمَّسها مالك في جسد الأمة، وهو في هذا يُؤكّد الارتباط الوثيق بين فعاليات الحضارة والثقافة، وأن سُكون عَجلة الحضارة يعود بالدَّرجة الأولى إلى المطبَّات الثقافية التي اعتبرها من أكبر الاعتلالات التي أصابت الفرد والمجتمع على حد سواء، حيث وقف بن نبي على تلك المصادرات الثقافية التي لم تعطِّل الفرد المسلم و فاعليَّته التَّاريخية فقط وإنما امتدت إلى أقصى الفعاليات الإنسانية والوجودية، بل عمدت تلك المصادرات إلى بناء قطيعة مع كل ما من شأنه أن يكون دفعا حضاريا له، بيد أن الثقافة باعتبارها الثروة الفكرية والقيمية لمجتمع ما تتجلى مباشرة على الصورة العامة له، ومن هنا تصبح إما عاملا من عوامل التطور والنشوء الاجتماعي أو بوصفها حاضنة للأمراض الاجتماعية أو النفسية للأفراد.

يُعتبر مالك بن نبي من بين الفلاسفة الذين عَنوا بالبعد الجمالي، والقيمي بشكل عام باعتبارهما مكونا ثقافيا وملمحا حضاريا، كما استشعر مبكرا اثر المصادرات الثقافية للفرد المسلم ودورها في انمحاء مقوماته الفكرية والأخلاقية ومعاييره في الذوق ومقاييسه في الجمال، كما صنعت تلك المصادرات من مجتمعه فضاءَ اجتماعيا مُترهّلا مُشوَّه المفاهيم ، ولا أَدلَّ على ذلك من انحراف مفهوم الجميلّ لديه، وهو أمر استدعى طرح بدائل كفيلة باسترداد المفاهيم واسترجاع أصالة المقومات الثقافية والجمالية، وفي هذا يطرح فكرة التوجيه عموما، وفكرة التوجيه الجمالي على وجه الخصوص، فما هي الأبعاد الحضارية لفكرة التوجيه الجمالي عند مالك بن نبي؟

وتتفرع الإشكالية الرئيسة الى مشكلات فرعية وهي

- كيف يعتبر الجميل عنصرا ثقافيا عند مالك بن نبي؟
- ما علاقة الجميل بالفكرة الدينية؟
- كيف يؤدي التوجيه الجمالي إلى استرداد البعد الأصيل للثقافة؟

2- في مفهوم الجميل

2-1- الجميل لغة

جاء في لسان العرب لابن منظور 1232م-1311م أن الجميل في اللّغة من الجَمَال وفعله جَمُلَ وهو في معنى الحسن والبهاء، ويأتي أيضا في معنى الزينة واللطف، ويبدو الجمال فيما يقع من حسن الصور والمعاني والأفعال (ابن منظور، 1999، ص 364)

2-2- المعنى الاصطلاحي للجميل

يذهبُ كثير من الباحثين إلى أنّ الجميل هو عملية مركَّبة من الانطباعات والتقييمات للإبداعات والآثار الفنّية، وتلك التي تَنشأ عمّا اصطَدم به الإنسان في المجال الطبيعي، وبالتَّالي هو كَشف عن مستوى القيمة، وهو من جهة أُخرى حُكم تقديري متعلق بالانفعال النَّفسي ، و عملية ذوقية يرتبط بالذات ومعياريتها للقيمة والحكم، والوصول إلى تعريف جامع هو من الصعوبة بما كان(أميرة حلمي مطر، 1998، صفحة20)، إذ هو معنى قابع في النفس غائب عن مجال العقل والمنطق و لا يمكن تفسير الجميل ولا وصفه سواء كميا أو كيفيا، وهذا الأمر الذي دَفع بالفلاسفة إلى تعريفه من خلال ما يترتَّب عنه من آثار

يبدو الجميل عملية مباشرة يقوم بها الإنسان وتنتج عن تجارب إحساسات وخبرات إدراكية، فتَكشف حقيقة الأشياء التي تتمظهر في موضوعات الطبيعة والموجودات، أو من خلال انفعالات يبديها الإنسان إزاء إبداعات أو صور فنّية جَمعت معاني الحُسن والكمال

2-3- التفسير الفلسفي للجميل

يُدرك الجمال في موضوعات الطبيعة والفنون على حد سواء، ولذلك جاءت التفاسير التي تفسّر الجميل إمّا بإدراجها من خلال الإبداعات والصور الفنية، وإما باعتبارها أحد المباحث الأخلاقية مثل ما هو الحال عند المسلمين، أو اعتبارها من جملة الإدراكات المباشرة للمجال الطبيعي فاعتُبرت أحد مباحث المعرفة مثل ما هو الحال عند اليونانيين

2-3-1- في الفكر اليوناني:

يرجع الفضل في ظهور الملامح الأولى للمفهوم الجمالي إلى الفلسفة اليونانية أين بدأ الحديث عن الجميل والفن والمحاكاة وذلك في سياق الفكر الفلسفي العام الذي ساد الحضارة اليونانية، حيث كان مفهوم الجميل عند سقراط Socrates – 399ق م مفهوما موضوعيا يتجاوز المفاهيم التي جاءت بها السُّفسطائية التي فسَّرت الجميل على أنه عملية حسّية نسبية تعود إلى فاعلية الحواس، و التي تعتبر النوافذ المعرفية والإدراكية للإنسان، فالجمال عند سقراط ثابت وهادف يتجسد في الفضيلة، فالجميل ذو غايات أخلاقية عليا، وإلى هذا المذهب ينحو أفلاطون Plato 427ق م-347ق م الذي حاول تكريس الجمال لغايات أخلاقية حتى أصبح في المفاهيم الأفلاطونية هو كل ما يتمثل الاخلاق والفضيلة، حيث وَرد في محاوراته أن الجميل عنده هو صفة للأفعال التي تتميز بالخير والنبل، ولذلك يبدو الجمال والخير من طبيعة واحدة وعالم واحد وهو عالم المثل، حيث يرتد المفهوم الجمالي لدى أفلاطون إلى نظرية المحاكاة التي تشكل همزة وصل بين المحسوس والمتعالي، ولهذا يقترن الجميل بالحق والخير(أميرة حلمي مطر، دت، ص ص27-28).

2-3-2- في الفكر الإسلامي:

يتشابك مفهوم الجميل عند المسلمين مع جملة من المصطلحات والمفاهيم لأسباب متعددة منها اللغوية والدينية، حيث يرادف الحسن والكمال والزينة والملاحة وغيرها، غير أن الثابت في مفهوم الجميل عند هذا الأخير هو اقترانه بالصورة والسلوك معا، وفي هذا يبدو الجميل عند المسلمين ذا مستويين ظاهر يعمد إلى إشباع ذاتي يختص باللذة الحسية، وآخر باطن يختص بجمال النفس وسلوكياتها في العلم والعقل والشجاعة والحلم... فهو يختص بالأخلاق وما تكتمل به النفس من صور الخير والاعتدال، «فالجمال هو كل حسن يحضر كماله اللائق بها الممكن له فإن كان جَمَع كمالاته المُمكنة حاضرَ مفهوم غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فلهُ من الحُسن والجمال بقدر ما حَضر» (الغزالي أبو حامد، دت، صفحة 290).

يتميز المفهوم الجمالي في الفكر الإسلامي بمجموعة من الصفات المشتركة سواء قديما او حديثا، فالجميل يرتكز على فكرة التوحيد القرآنية، أي أن الظاهرة الجمالية في الإسلام تنتهي إلى مبدأ التوحيد، وهو ما يصطلح عليه بالحقيقة، ومن صفات المسعى الإستيطيقي عند المسلمين هو تجلي الذات الإلهية في الصورة الجمالية، وهنا تتزاوج الصورة مع السلوك أي اكتمال الظاهر على الباطن وهو ما يعبر عنه بوحدة المقصد (محمد صالح الشامي، 1986، ص ص 112-119).

2-3-3- في العصر الحديث:

ظهرت في الفترة الحديثة تصورَات مُغايرة لمفهوم الجميل، إذ واكب المد الحداثي والعقلي الذي هيمن على الفلسفة الأوروبية وما تحمله من تفسيرات عقلانية للظواهر والأشياء، حيث يعرفه الفيلسوف الألماني كانطKant 1724م-1804م بأنه مجموعة من النشاطات التي تحدث في الذهن وهي مغايرة للمعرفة النظرية، كما أنها ليست عملية تختص بالسلوكيات الأخلاقية، وإنما هو

ضرب من اللّذة الناتجة عن اللّعب الحر بين الخيال والذهن فهو شعور سيكولوجي مصدره الذات متصف بالكلية والضرورة ومتعال عن الخبرة الحسية، ولو أنّ كانط في فلسفته النقدية وبالتحديد في سفره نقد ملكة الحكم وضع شروطا للجميل من حيث الكم والكيف والجهة والعلاقة (أميرة حلمي مطر، دت، ص ص11-16)، ولهذا الرأي ذهب أرنست كاسيرر ErnestCassirer 1874-1945 وهو أحد الكانطيين الجُدد، واعتبر أنّ الجميل خاصية مباشرة ومُبطنة في الأشياء يتضمن إحالات قابلة لإدراك الحقائق الجمالية فالذّات المدركة لها الأثر الكبير في اكتمال الحقيقة الجمالية (محمد صالح الشامي، 1986، ص 26).

من التفاسير الفلسفية التي عرف فيها الجميل منعطفات مفهومية في الفترة الحديثة هو التفسير الهيجلي الذي يرتد إلى مثالية هيجل Hegel 1770-1831 في فرضية الروح المطلق وما يحكمه من ديالكتيك، حيث يرى أنّ الجمال ميدانه الإدراك الحسي في إطار الفكرة العامة المتجلية في الأشياء الحسية، ومن هنا نستشف أنّ الجميل هو عملية إدراك للموضوعات الجميلة «فالجميل هو إشعاع الفكرة من خلال الموضوعات الحسية ... فهو تَركيبة عُضوية بَين العناصر الإدراكية والتصوُّرية وعليه فالجمال مَرهون بالفكرة وتَمثُّلها» (محمد بوروينة، 2012، ص35-37) وكذلك نجد التفسير النيتشوي الذي يُعتبر من أكثر المفاهيم انعطافا وإثارة للجدل حيث أرجع نيتشة Nietzsche 1844-1900 في كتابه "ولادة التراجيديا" الجميل إلى الرؤية الذاتية الخاصة، من خلال التأكيد على دور الإرادة الإنسانية، حيث اعتبر الإدراكات الجمالية مظاهر لإرادة القوة، بل إن العلوم والفلسفات والفنون التي تُعتبر تمثُّلات جَمالية ما هي إلا اختراع من الإنسان، وليست الإبداعات الفنية إلاَّ شوطا من الإثارة والصراع بين مختلف الإرادات(أميرة حلمي مطر، دت، ص157).

لم يتأسس الجمال كعلم قائم بذاته إلا على يد الألماني بومجارتنBaumgarten 1714-1762، حيث أصبحت الإستيطيقا علما مُستَقلا يُطلق على مبحث الجمال، وأضحى بموجب ذلك من جملة الإدراكات الحسية أو هو علم المعرفة الحسية، متجاوزا بهذا المفهوم كل المقاربات التي حاولت تفسير الظاهرة الجمالية تفسيرا ميتافيزيقيا أو مثاليا أو مقترنا بفعاليات أخرى كالخير والحق والأخلاق وغيرها، غير أن البارز في مقاربة بومجارتن للجمال هو فاعلية الذات، وهنا يظهر دور الإحساس في التقييم الجمالي وهذا الأخير هو ما يؤسس لابيستيمية الإستطيقا في نظر بومجارتن إذا كنا نعتبر الإحساسات الجمالية عملية حسية عليا وشكلا من أشكال الوعي بالموضوع الجمالي(ركماوي ع الله، 2013، ص51).

2-4- الصورة الفنية موضوع للجميل:

تتلازم في مستويات الإثبات ثُنائية الفن والجمال، وهذا فيما يبدو عند الفلاسفة والنقاد بالصُّورة أو الصُّورة الفنية، ذلك أن العَمل الفنّي هو عمل إبداعي يسمح بانتقاء وتنظيم وتناغم المواد الطبيعية أو المستخلصة من نسق الحياة الإنسانية، فنسمي صاحب هذا العمل فنّانا، سواء ما تعلق هذا العمل الفني بالألوان أو الأصوات أو العواطف وهنا تنقسم الصورة الفنية إلى ما تسميه الباحثة أميرة حلمي مطر 1930 -العنصر المجرد والعنصر الدرامي.

أمّا ما يربط الجمال بالصورة الفنية فهو ما نسمّيه الانفعالات الجمالية، فالصّورة الفنية وما تَحمله من مضامين وما تُجسّده من تَراكيب مستمدة من الأفكار أو من الواقع و هو ما يُولّد إحساسنا بالجمال، وذلك لما له من ارتباط مباشر بين شدّة التصوير وشدّة الوجدان الإستيطيقي القابع في ذواتنا(أميرة حلمي مطر، دت، ص ص44-56)، وهنا يبدو العمل الفني تعبيرا من الفنان عن رؤيته الخاصة التي يضفيها على موضوع من مواضيع الحياة والوجود، ويتأكد حينها أن الصّورة الفنية هي مَجال للجميل، ولهذا يصحُّ البحث عن «الجمال في أعمال الفن الجميل» (محمد علي أبو ريان، د ت،ص111) على حد تعبير أبو ريان 1920-1996، بيد أن هذا الارتباط بين الجمال والصُّورة الفنية يُحدّد تَحديدا مباشرا المفهوم الفني الذي يتجاوز حدُود اللذَّة الحسّية بالجميل، فالمفهوم الفني له خصوصية ثقافية وحضارية لأن تَكامل العناصر الفنية في نسق معين يعني تكاملا جماليا وقيمة معرفية

وأخلاقية، وهو الأمر الذي يربط بين ثلاثية الجمال، الصورة الفنية والمفهوم الفني(محمد حسين إدهام، 2012، ص128)، وهذا الأخير يتشكَّل من امتزاج وتراكب معطياته الثقافية مع ملكاته وقدراته، فنصطلح على هذه العملية بالإبداع الفني، التي تستجلي كل الجوانب الحياتية للإنسان «فالفنان يعيش جملة من التوترات النفسية والجسدية.....إنها عملية تتداخل فيها جملة من العوامل الفطرية والاجتماعية والنفسية» (غالم نقاش، 2019، ص8).

3- الجميل عند مالك بن نبي وعلاقته بالأبعاد الثقافية

يعتبر الجمال أحد أسس ومقومات الثقافة حيث يتفاعل مع المقومات الثقافية الأخرى كالأخلاق والأفكار وفق مبدأ التوجيه، ليشكل نمطا ثقافيا معينا يطبع الفرد والمجتمع على حد سواء

3-1- مفهوم الثقافة

تتعدَّد المفاهيم التي طرحها مالك بن نبي للثقافة، ويرجع ذلك إلى المناطات والوظائف التي تؤديها الثقافة في حياة الفرد والمجتمع، ولما لها من ارتباطات متجذرة مع مفاهيم أخرى كالمدنية والعلم والوعي والحضارة، حيث أدرج مالك في كتابه مشكلة الثقافة جملة من التعاريف التي تخص الفرد باعتبارها فعلا ذاتيا، إلى تعاريف تمتد إلى أقصى الفعاليات الحضارية، متتبّعا في ذلك الملامح التاريخية للمفهوم والتحليل النفسي والاجتماعي لها، ويَقصد من عملية التحليل إبراز التمايزات الثقافية(زكي الميلاد، 2010،ص60) تبعا للتنوُّعات الاجتماعية والتاريخية ومُستَشكلاً التفسيرات الكلاسيكية لها قائلا:«لكي نزيد في تحديد دور الأفكار في ظاهرة التثقيف ينبغي أن نحدد في أي الظروف التاريخية والاجتماعية تؤدي دورها؟» (مالك بن نبي،2000، ص46)، فالأفكار لطالما ارتبطت بمجموعة من الشروط السوسيونفسية حتى تؤدي دورها وتضمن فاعليتها، وفي هذا يقترح تعريفا جامعا للثقافة لتشمل الحمولة الفكرية والمعرفية والعلوم والصفات الخلقية والقيم الاجتماعية وكل ما له علاقة بين الفرد ومحيطه «فالثقافة تعرف بصورة عملية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقَّاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي وُلد فيه، والثقافة على هذا الأساس هي المُحيط الذي يُشكّل فيه الفرد طباعه وشَخصيته» (بن نبي، 1986، ص83).

تتلخَّص الرؤية المفهومية للثقافة عند بن نبي على تلك التوليفة التي تجتمع فيها عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء ضمن إيقاع العلاقات الاجتماعية التي تحقق مبدأ الفاعلية وتسمح بإبراز المقومات الثقافية كالأخلاق والعمل والعلم والجمال وغيرها.

3-2- مفهوم التوجيه:

يُؤكد بن نبي في كتابه شروط النَّهضة أنّ تَوجيه الأشياء الإنسانية يعني أولاً تعريفها، فصياغة المفهوم للأشياء هو تَحديد أوَّلي ومُباشر لوضعها وقيمتها التاريخية والحضارية، ويقصد مفكرنا من فكرة التوجيه بناء إطار يبني وحدة الهدف، حيث يسمح بتوافق المنطلقات الثقافية للإنسان مع نهاياتها، ما يكسبها بُعدا حضاريا وتماسكا اجتماعيا، ولعل فكرة التوجيه هي الإطار الجامع الذي يجعل من الفعل الإنساني حاضرًا في التاريخ، حيث تَرتبط فكرة التوجيه بالفكرة الدينية باعتبارها غاية موحَّدة تصبُّ فيه كل العَناصر والمقوَمات الثقافية، و باعتبارها إلمام عام لشروط الحضارة، وهو ما كان عليه الحال في الدَّفعة الدينية الأولى التي عملت على توجيه طاقات الفرد المسلم ومقوماته الثقافية، وكان من نواتجها ميلاد الحضارة الإسلامية في صورة مجتمع المدينة، وهنا تبدو فكرة التوجيه بمثابة الجهاز الذي يُوجّه ويُحدّد المَسارات، بيد أن التوجيه الذي يقصده بن نبي هو توجيه لمسار الحركة التاريخية المتعلقة بالإنسان وما ينتج عنها من مقومات ثقافية، ففكرة التوجيه تتعلق بالإنسان أساسا سواء كان توجيها أخلاقيا أو جماليا لهدف واحد وإطار حياة عامة واحدة (مالك بن نبي، 1986، ص ص78-79)، وهذا ما يؤكده في كتابه مشكلة الثقافة عندما أتى على ذكر الغاية الواحدة التي تسمح بجمع كل العناصر الاجتماعية والثقافية في إطار حياة واحدة، مثل ما يجمع راعي

غنم وعالم في أداء وظائف اجتماعية او اختيارات ذوقية، وذلك هو التوجيه الثقافي بالتحديد(مالك بن نبي، 2000، ص77)، باعتبارها تَمَثُّلات سلوكية تجمعهما غاية واحدة وهي الفكرة الدينية.

3-3- مفهوم الجميل عند مالك بن نبي

يُعتبر الجميل عنصرا ثقافيا مرتبطا بإطار اجتماعي معين، وبالتالي هو شكل من أشكال الحياة الاجتماعية أو كما يسميه بن نبي "عنصر لتكوين الذوق العام" وهنا يبدو مفهوم الجميل، مفهوم سوسيوثقافي يرتد إلى أصول اجتماعية، ويتمظهر في أشكال سلوكية «فالذوق الجميل هو الذي ينطبع في فكر الفرد ويجد الانسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل وتَوخّيا للكريم من العادات» (مالك بن نبي، 1986، ص91).

يُترجم الجميل في فكر بن نبي الحمولة الفكرية والثقافية للفرد والمجتمع، وعلى هذا الأساس يعكس فعل التذوق الجمالي مقدار الأفكار ومدى استهدافه للفكرة الدينية، التي تعتبر الأكثر توجيها والأَقدر على صياغة ذوق جمالي عام، فوحدة الذوق العام التي تطبع المجتمع هي بالأهمية بما كان أن يكون لها مؤسسة حكومية تؤطرها، وفي هذه النقطة بالذّات لا يُخفي بن نبي نَقَمه من صورة الذوق الجمالي العام الذي يطبع المجتمعات الإسلامية الغارقة في أوحال الانحطاط والتخلف، مبرزا انحراف مفهوم الجميل لديها، ويعزو ذلك إلى هيمنة الثقافات الوافدة من جهة وانفصام الواقع الثقافي عن الميثاق - الفكرة الدينية- .

4- الأبعاد الثقافية للجميل عند مالك بن نبي

لا تنحصر الظاهرة الجمالية في الإطار الفردي بل تمتد إلى أقصى الفعاليات الاجتماعية والثقافية حيث تعمد إلى أداء أدوار عميقة تكون بمثابة تربية اجتماعية، وتظهر في الصورة العامة للمجتمع

4-1- البعد الأخلاقي والتربوي للجميل

يُعتبر كل من الأخلاق والجمال أحد المُقوّمات الثقافية التي يُبنى عليها مجتمع ما، بل إن سلَّم حضارته تُقاس بدرجة هذين الإثنين، بيد أن بن نبي استشفَ من خلال مقارنته بين الحضارتين الغربية والإسلامية أن هناك جملة من الاختلالات فيما يتعلق بالعلاقة بين الأخلاق والجمال إلى درجة «أن كل ثقافة تسيطر هي ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية على حساب القيم الأخلاقية» (مالك بن نبي، 1986، ص104)، وهي مسألة قيمية سريعة الظهور على المستوى الاجتماعي، حيث يَتأكَّد له أن الجمال باعتباره عنصرا ثقافيا هو أكثر حظوة من الأخلاق، فالقيم الجمالية لطالما كان بروزها على أنقاض القيم الأخلاقية، بل أصبحت الظاهرة الجمالية تنشأ طرديا مع القيم الأخلاقية هذا ما خلص إليه من خلال اطّلاعه واحتكاكه بالثقافات الغربية(محمد سعود، 2017، 263)، الذي لا يرتبط فيها البعد الأخلاقي بالجميل على عكس الحضارة الإسلامية التي يرتبط فيه الذوق الجمالي بالقيم الخلقية وإلّا لما كان «الذوق الجميل الذي ينطبع في فكر الفرد .....يجد في الإنسان نزوعا إلى الإحسان في العمل وتَوخّيا إلى الكريم من العاداتٍ» (مالك بن نبي، 1986، ص91).

إنّ الاختلالات التي تحدث في العناصر الثقافية هي ما يصطلح عليها بن نبي بالمسألة الثقافية التي عكف في مدوناته على توصيفها والتحذير منها، مؤكدا أن الأَمد البعيد للأزمة الثقافية هو أُفول الحضارة، وأن الأمر المَنُوط بالثقافة التي تُبنى عليها الحضارة هو توازن مقوَماتها وعناصرها وفق مبدأ التوجيه تترجمها المعادلة التالية:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = حضارة (مالك بن نبي، 2000، ص ص101)

يرجع رباط الأخلاق بالجميل إلى استجلاء القوة الروحية والطاقة الإيمانية للفرد المسلم باعتبارها دفعة حضارية، فالفكرة الدينية عند بن نبي هي صورة الحضارة المختزنة، وهنا بالذَّات لا يُخفي شدّة امتعاضه من نفسية المسلم في عالم اليوم التي تعتبر نفسية مشبعة بركام الحضارة الغربية التي تُصور الجميل مطيَّة لإشباع الغرائز وهو طور هزيل من الحضارة بعيد عن مرحلة الروح

المفعمة بالإيمان ، فَثُنائية الأخلاق الجمال هي من سمات الحضارة الإسلامية، ولا مندوحة أن يدرس علماء الاخلاق المسلمين أفكار الجمال وفلسفاتها إلى درجة أن أعطاها البعض مسحة صوفية حيث تم ربطها بالكمال على شرط استواء النفس الإنسانية واكتمالاتها السُّلوكية والفكرية وعلى مداركها الحسّية واللُّغوية، حيث نشأ في مفهوم الجَمال، جمال ظاهر يختص بالإشباع الحسّي واللّذة الذوقية من حسن واستواء وتناسق وتناغم، وآخر باطن يأخذ العلم والسلوك والحلم وما تكتمل به النفس الإنسانية من مقاييس للذوق ومعايير في الجمال(عباس شارف، 2016، ص3).

2-4- البعد الاجتماعي للجميل

يتجاوز مفهوم الجميل في فكر بن نبي حيّزه الذاتي القابع في النفس باعتباره إشباعا حسّيا ذاتيا إلى بُعده الاجتماعي الذي يشمل شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تم الارتباط فيما بينها بصفة تعاقدية اتاحتها الفكرة الدينية، والتي سَمحت ببناء الفرد الاجتماعي، ليس هذا وحسب وإنَّما عَملت الفكرة الدينية على ترميم تلك الشبكات من العلاقات الاجتماعية التي تُعتبر محك فاعلية الأفراد في المجتمع، بل كل فعالياتهم الفكرية والثقافية والجمالية «إنها تَحدّد فعالية الإنسان في جميع أطوار التاريخ» (مالك بن نبي، 2002، ص135)، ومن هنا يتأكّد في الرؤية البنَّابية أن العلاقة الوظيفية للفكرة الدينية مع الأفراد وشبكة العلاقات لا تتمظهر فقط في إيقاع الترابط الاجتماعي وتحديد فاعلية الأفكار وإنّما تتعدى إلى تحديد الأنماط القيمية والجمالية للفضاء الاجتماعي، وهذه الأخيرة هي ما عَكف بن نبي الوصول إليه، فالفكرة الدينية التي تُمثل مبتدأ الفعل الحضاري هي ما يجب أن تنتهي إليه كل الفعاليات الإنسانية في المجتمع(بن شعيب بلقاسم، 2020، ص16)، بيد أنّنا نستشف مما سبق عليه التحليل تصنيفا مُضمرا يصور حالة مجتمعين في وضعين حضاريين مُتباينين «نَموذج يقوم فيه النشاط على الدوافع الجمالية ،ونموذج يقوم فيه النشاط على الدوافع الأخلاقية أول» (مالك بن نبي، 1986، ص101)، فالمجتمع الذي تدفع فيه الغريزة الجمالية دفعا هو غير المجتمع الذي تصل فيه الدوافع الجمالية إلى غايات أخلاقية أرستها الفكرة الدينية.

يُعتبر كل من الفرد والمجتمع على قدم المساواة فيما يخص العلاقة بين ثُنائية القيم الجمالية والقيم الأخلاقية التي اصطلح على تسميتها بن نبي بالنفس الاجتماعية، حيث «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصورة في أفكاره وأعماله ومساعيه.... لقد بعثت هذه الملاحظة كل من عنوا بالنفس الاجتماعية ...لدراسة الجمال وتقديره في الروح الاجتماعية» (مالك بن نبي، 1986، ص91)، فوقْعُ الجمال على النفس الإنسانية هو على الدَّرجة نفسها إذا ما وقَع على المجتمع، فللجمال دستوره الخاص في الحُسن والكَمال والاتساق والتناغم ومثل ذلك يقع للمجتمع، وفي المقابل إذا ما وقع انطباع الفرد بالقبح وتشوه للصورة فإنَّ ذلك سيكون سريع الظُّهور على مُستوى المجتمع.

5- الفن وبناء المفهوم الحضاري الجميل

تتّسم الرُّؤية البنَّابية للفن بطوابع متميزة، حيث يعرّفه في مفهوم أوسع بالصّناعة التي تشمل الفنون والقدرات المبدعة والمهن، ويَعزُوه إلى سببين هامين، الأول حاجي لحاجة الفرد والمجتمع للصناعة، والثاني ثقافي يعكس المخزونات الثقافية للمجتمع حتى يَضمن استمراريةَ كيانه وهَويّته، وفي هذا يقول: «من المُسلّم به أن الصّناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه ... ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه» (مالك بن نبي، 1986، ص97)، فالمجتمع يُبدي حاجته للفن والصناعة باعتباره ذا منفعة عامة، وباعتباره حاملا أخلاقيا وذوقا جماليا، تُترجم فيه العناصر الكبرى لثقافة مجتمع معين، مثل ما هو واقع الفنون في المجتمع الغربي الأوروبي الذي يصور وينحت المرأة العارية على عكس الفنون الإسلامية التي تخلو من هكذا صور، ولو أن الهدف هو دافع جمالي إلاّ أنّه يَخلو من الطابع الأخلاقي، حيث يعزوه مالك الى المُركَّب الثقافي الذي بني عليه المجتمع.

يَحمل مفهوم الإدراكات الجمالية للفنون أهمية قصوى لدى بن نبي، لأنها تُحدّد قيمة الصورة الفنية من جهة ومن جهة أخرى تحدّد مفهومنا للجميل وفي هذا يَرى أن ثَمَّة عناصر تبني مفاهيمنا الذوقية وإدراكاتنا الجمالية ومنها:

- النظام الطبيعي: وهوما يجده الإنسان من إعجاز في الطبيعة تتحدّى فيه المَلكات والقُدرات البشرية مما يثير النفس ويبعث عليها الرّضا والارتياح والسُّرور ولما تَحمله من تناسق وانتظام
- الشرط الديني: حيث يكون فيه بعد اكتمال الظاهر بالباطن، وما يضمنه من وحدة وتجريد وتمظهر بحسن في السلوك مما يؤدي بالنفس الشعور باللذَة والسعادة والقبول واصطلحَ عليه بن نبي بمصطلح "الإحسان"(لطيفة فايد، 2021، ص 365)
- الشرط السايكوسوسيولوجي: وهو أن يتجاوز الجمال إدراكات الفرد من تلقّي نفسي يخص الألوان والأشكال والتناسق والنظام إلى البعد الاجتماعي الذي يتشاركه كل الأفراد ويظهر في صورة الذوق الاجتماعي العام
- البعد العملي: وهو الجانب القصدي الذي ينتج عنه آثار نفعية، بيد أن هذا الجانب لا يخلو من شروطه الأخلاقية (بدر الدين مرزوقي، 2012، ص20-21).

تتحدَّد أصالة الفن وقيمته الجمالية فيما يُبديه التعبير الفني من حقيقة، باعتباره مقوّمَا ثقافيا ومَلمحا حضاريا، وهو اعتبار يؤكّد عبقرية الفنون الإسلامية عند بن نبي على ما اشتملت عليه من حقيقة، فضلا عن عنصر الجمال «فكل ثقافة تتضمن عنصر الجمال وعنصر الحقيقة.... غير أن عبقرية أحدهما تُفضّل أن يكون محورها الحقيقة» (مالك بن نبي، 1986، ص108)، وعندما تكون الفنون مضامين للحقيقة يجوز القول إن هذه الفنون قد أدت وظائفها الحضارية.

يقصد بن نبي من البعد العملي جملة الروابط التي تربط بين الأشياء ومراميها أو هي الكيفيات التي تجعل المنطلقات تحقق غاياتها وفق وضع عملي، فالأفكار التي لا ترى النور كغاية ينتفع بها إنما تفتقد إلى كيف عملي يجسدها ويجعل منها طابعا ملموسا أو بالأحرى شيئا يجعل منها ذات فاعلية، ويعزو ذلك مالك إلى اهتراء شبكة العلاقات الاجتماعية فهي المنوطة بتنزيل الأفكار وإثبات فاعليتها

يعتبر الارتباط بين المنطق العملي والعمل الفني ارتباطا وثيقا إذا سلّمنا أن الفنون هي من جملة الصناعة الخاضعة للقيمة الاجتماعية وأن ولادة الوعي الجمالي تتم في الحاضنة الاجتماعية التي تبني معايير الفرد ومقاييسه في الحكم ، حيث يجعل بن نبي المظهر العام للعلاقات الاجتماعية وإيقاع شبكتها المبتدأ العملي للأفكار والأحكام القيمية والجمالية، ومنه إذا كانت العلاقات الاجتماعية في مقام القوة والوحدة والانتظام فإنها تشكل فضاء لتفعيل الأفكار وكل أنماط الوعي بما فيه الوعي الجمالي بل ستغدو «للفرد وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده وهي للمجتمع وسيلة للحفاظ على كيانه واستمرار نموه» (مالك بن نبي، 1986، ص97)، وفي المقابل من ذلك يؤدي ترهل العلاقات الاجتماعية إلى فقدان المنطق العملي والذي يعتبر أمارة على مرض مجتمع ما، حيث يقدم ملمحا لطور هزيل من الحضارة، فيتأكد في مستويات الإثبات أن البعد العملي للفنون هو الجانب القصدي الذي يسمح بإنتاج آثار نفعية ترتسم على المظهر العام للمجتمع، بيد أن هذا الجانب لا يخلو من شرطيته الأخلاقية.

6- خاتمة

بعد هذا التّطواف المعرفي يُمكننا القول أنّ هناك تلازمية واضحة بين الثقافة والجمال، فالثقافة هي المرجعية الأولى والمباشرة لنشأة مفاهيمنا الجمالية، وأنّ الإستلابات الثقافية التي عرفها الفرد المسلم نتيجة استدعاءه للثقافة الغربية قد حرَّفت مفهومه للجميل، ولتقويم ذلك لابد من مبدأ التوجيه الذي يُمكّن من استرداد مفاهيمنا للجميل، وذلك بتوجيهه نحو غاية محددة وهي الغاية الأخلاقية التي أتاحتها الفكرة الدينية، حيثُ تَنبني العلاقة بين الرؤية الجمالية والصورة الفنية على مبدأ الأخلاق، وهو

أمر في منتهى الأهمية لتأطير عملياتنا الذوقية، وقد استوعب بن نبي ذلك من خلال استقراءه لتاريخ الفنون الإسلامية التي استهدفت القيمة الخلقية.

يأخذ مالك على عاتق التوجيه الجمالي إظهار صورة الحضارة في قالب تغيرات اجتماعية، حيث يعتبر الجميل أحد المقومات الثقافية التي يختزنها الفرد والمجتمع ويَضطلع مبدأ التوجيه بمهمة التغيير والتجديد الاجتماعي، من خلال المَتاحَات النفسية التي أتاحتها الفكرة الدينية، فالجميل عند بن نبي يتجاوز حيّزَه الذاتي القابع في النفس إلى إطار اجتماعي، أي ينتقل من كونه إشباعا حسيا وشعورا بالسَّعادة إلى أدوار أقرب إلى صورة الحضارة وهي أدوار متعلقة بالتربية الاجتماعية.

يسمح مبدأ التوجيه الجمالي باستيعاب كافة الرؤى الفكرية والفلسفية لمفهوم الجميل، فإذا كان مفهوم الجميل في إطار الثقافة الغربية يهدف إلى مجرد إشباع حسي أو الشعور باللذة الجمالية أو تحقيق منفعة مثل ما هو الحال عند البرغماتية أو الماركسية فإنّ الجميل عند بن نبي لا يتحرج في أن يهدف إلى منفعة معينة، بيد أنّ ذلك لا يتم إلاّ بشرطية أخلاقية، وهذه الأخيرة تصدق على الفنون أيضا فيما يجب أن تبديه من عنصر الحقيقة التي أصبحت صفة مميّزة للفنون الإسلامية برُمَّتها ومنها اكتسبت امتيازها واستجلت عبقريتها، ومادامت فعالياتنا الجمالية والأخلاقية والثقافية تستهدف الحقيقة والفكرة الدينية فهي فعاليات في طريق الحضارة.

- قائمة المراجع:

ابن منظور جمال الدين. (1999). لسان العرب، (ج14). ط3. بيروت، دار إحياء التراث.

أبو ريان محمد علي. (د ت). فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، الإسكندرية، دار المعرفة.

ادهام محمد حسن. (2012). الوحدة والتنوع في نظرية الفن الإسلامي، مجلة إسلامية المعرفة. الأردن. العدد 69.

بن شعيب بلقاسم. (2019). أسلمة المعرفة وتقاطعها مع مشروع مالك بن نبي الفكري، مجلة العلوم الاجتماعية. جامعة الأغواط. الجزائر. العدد 02 مكرر ج1/جويلية.

بن نبي مالك. (1986). شروط النهضة. (ترجمة: شاهين ع الصبور وعمر مسقاوي). دمشق، دار الفكر.

بن نبي مالك. (2000). تأملات. دمشق، دار الفكر.

بن نبي مالك. (2000). مشكلة الثقافة. (ترجمة: شاهين ع الصبور). ط4. دمشق، دار الفكر.

بورورينة محمد. (2012). الجمالي والفني عند هيجل، رسالة ماجستير غير منشورة. تخصص الفلسفة. قواسمي محمد. كلية العلوم الاجتماعية. جامعة وهران.

حلمي مطر أميرة. (1998). فلسفة الجمال أعلامها ومذاهبها. ط1. مصر، دار قباء.

حلمي مطر أميرة. (د ت). مدخل إلى علم الجمال وفلسفته. ط1. القاهرة، دار التنوير.

ركماوي ع الله. (2013). الوعي الجمالي في الخطاب الفلسفي هيجل أنموذجا. رسالة ماجستير غير منشورة. تخصص الفلسفة. سواريت بن اعمر. كلية العلوم الاجتماعية. جامعة وهران.

زكي الميلاد. (2010). المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة. ط2. بيروت. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

فايد لطيفة(2021). فكرة الجمال في تصورات مالك بن نبي، مجلة مقاربات فلسفية، المجلد 8، العدد1.

سعود محمد(2017). التركيب النفسي للثقافة وعلاقته بالجمال عند مالك بن نبي، مجلة العلوم الإنسانية. جامعة محمد بوضياف المسيلة. الجزائر. العدد 13.

شارف عباس. (2016). الجمال والحضارة مقاربة مالك بن نبي على الحضارة الغربية انموذجا، مجلة الحوار الثقافي، المجلد 5، العدد 2.

الشامي محمد الصالح. (1986). الظاهرة الجمالية في الإسلام. ط1. دمشق، المكتب الإسلامي.

الغزالي أبو حامد. (دت). إحياء علوم الدين(ج4). بيروت، دار المعرفة.

مرزوقي بدر الدين. (2012). الأسس الحضارية للتربية الجمالية مالك بن نبي نموذجا، مجلة العلوم الإنسانية. جامعة وهران1. الجزائر. العدد 1.

نقاش غالم. (2019). مقاربة بسيكو فلسفية للإبداع الفني مصادره ودوافعه، مجلة جماليات. جامعة مستغانم. الجزائر. العدد 1.